البعد الإنساني في الزيارة الأربعينية

(دراسة في الأسباب والنتائج)

أ.م.د. جاسم عبد الواحد راهي

المقدمة:

الحمد لله رب السماوات السبع والأرضين السبع وما بينهن وما فوقهن وما تحتهن ورب العرش العظيم له الشكر على ما انعم والثناء على ما قدم وأفضل الصلاة وأتم التسليم على خاتم الأنبياء والمرسلين محمد الصادق الأمين وعلى آله الغر الميامين، مصابيح الهدى والعروة الوثقى والحجة على أهل الدنيا، وعلى صحبه المخلصين المنتجبين .

أما بعد.. فإن زيارة الأربعين هي تجديدٌ لمصيبة كربلاء، تلك المصيبة التي لم ولن يشهد العالم لها نظيرا، ولم يتعرض أي احدٍ لمثلها. ومن هنا فإن الأئمة (عليهم السلام) حثوا على إقامة الشعائر على الإمام الحسين دون غيره من الأئمة، علماً منهم أن مصيبة الإمام الحسين لها دورٌ كبيرٌ في إبقاء الرابطة الدينية وإدامتها، وأنها حاجة ملحة في إحياء أمر الرسالة والرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)، فضلاً عن إحياء أمر الأئمة المعصومين ـ عليهم السلام ـ، وقد ورد عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) في بيان عظم مصيبة الإمام الحسين (عليه السلام) أنه قال: ((إن لقتل الحسين حرارة في قلوب المؤمنين لا تبرد أبدا)) [١] وكذلك ما رواه زرارة عن الإمام الصادق (عليه السلام): ((قال أبو عبد الله (عليه السلام): يا زرارة إن السماء بكت على الحسين أربعين صباحا بالدم، وإن الأرض بكت أربعين صباحا بالسواد، وان الشمس بكت أربعين صباحا بالكسوف والحمرة، وإن الملائكة بكت أربعين صباحا على الحسين))[٢] وكذلك قول الرضا (عليه السلام): ((إن يوم الحسين أقرح جفوننا، وأسبل دموعنا، وأذل عزيزنا بأرض كربلاء، وأورثنا الكرب والبلاء))[٣]، ومن ذلك ما ورد عن الإمام المهدي (عليه السلام) قوله في زيارة الناحية المقدسة: ((فلئن أخرتني الدهور وعاقني عن نصرك المقدور ولم أكن لمن حاربك محاربا ولمن نصب لك العداوة مناصبا فلأندبنك صباحا ومساء ولأبكين عليك بدل الدمع دماً)) [٤]، كل ذلك وغيره كثير من الأحاديث المروية عن النبي الأكرم والأئمة الأطهار يبين عظم واقعة كربلاء، وأثرها في النفس ومكانتها الدينية؛

كثيرًا مَا نسمعُ أَو نقرَأُ أَنَّ الزيارة رِسالةٌ، ولها آداب وأهداف، فهي تهدفُ إِلى غَرسِ الأَخلاقِ الحميدةِ، وَإِرسَاء الفضائِلِ وَالحكمةِ فِي نُفوسِ الزائرين، فَمِنها نتعلمُ الخبرَةَ؛ خِبرَةَ الأَجيالِ الماضِيةِ، وَنجيدُ التّصرفَ مع الظَّرفِ المُحيطِ؛ على اختلافِ أَشكالِه، مِن خلَالِ التَأمل لِمَا يَتَضمَنُه من دلَالَاتٍ، فَالزيارة تَضُمُّ التّجربَةَ، وَتُعبِّرُ عن العواطفِ وَالمشاعرِ اتجاه صاحب الزيارة، وإبراز موقفِه المُؤثرَ والمتميز، الذي لَا يستطيعُ كثيرٌ من النَّاسِ التَّعبيرَ عنهَ.

ومما ساعد بنحو كبير في نشر معالم الإسلام عموماً، وتعاليم أهل البيت(عيهم السلام) خلفاء رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) والامتداد الحقيقي لمبدأ النبوة والرسالة على الخصوص، هو تلك الشعائر المتمثلة بالزيارات المسنونة من أهل البيت (عليهم السلام) ولاسيما الزيارة الأربعينية المباركة تلك الزيارة التي اكتسبت مشروعية قولية وعملية من لدن المعصوم (عليه السلام) حتى عدت من علامات الإيمان وأمارته، فقد روي عن أبي محمد الحسن بن على العسكري ـ عليهما السلام ـ أنه قال: علامات المؤمن خمس: صلاة الإحدى والخمسين، وزيارة الأربعين، والتختم باليمين، وتعفير الجبين، والجهر، ببسم الله الرحمن الرحيم)) [٥]

لقد اتسعت الرقعة الجغرافية التي تغطيها هذه الشعيرة السنوية، شيئاً فشيئاً، حتى بلغت مناطق واسعة من المعمورة تخرج بها الناس قاصدةً ضريح الإمام الحسين (عليه السلام) في وقت واحد ولهدف واحد هو الحضور عند قبره الشريف في تظاهرة كبيرة، لتتصهر بها الحضارات والأديان والأفكار، لتمثل في وقتنا الحاضر أعظم تظاهرة إنسانية جمعت بين أطيافها جنسيات مختلفة وملل متنوعة، كاشفة بذلك عن بعد إنساني عميق، وهذا ما استدعى الباحث أن يقف على هذا البعد ليضع يده على حقائق منبعه ومعطياته التي تتحقق في الزيارة الأربعينية، والتي ستبين في ثنايا البحث، معربة عن أسباب التقارب والتجانس الاجتماعي. ويبدو للباحث: أن العالم المعاصر بكل ما أوتي من قدرة اقتصادية وتكنولوجية وغيرها سيكون عاجزا تماما عن إيجاد أمثال هذا التجانس الإنساني الذي تشربت به نفوس الزوار الذين انصهرت ارواحهم في حب إمام الشهداء وسيد الأحرار(عليه السلام)، واشرأبت أعناقهم واجتمعت همومهم باتجاه تعظيم هذه الشعيرة المقدسة.

لقد ولَّدَت هذه الشعائر بعض المنافع العظيمة كترسيخ قضية الحسين (عليه السلام) ومظلوميته لدى النفوس، وإعطاء صورة حية عن مأساة كربلاء، وأوجدت المنفعة العظيمة المرتقبة والأبعاد المنشودة في الشارع الإسلامي.. ولكي يصيب البحث مراميه جاء موجزاً من خلال مقدمة وأربعة مطالب، كان الأول منها بعنوان الإسلام والتربية الإنسانية، ويتحدث عن الإسلام والتربية الإنسانية. وكيف أن الزيارة الأربعينية تحقق هذا المبدأ الإسلامي وتكون تطبيقاً عملياً للتربية الإنسانية. واختص المطلب الثاني وعنوانه: الانفتاح الثقافي وتوحد الهوية؛ بتوضح ما تحققه الزيارة الأربعينية من الانفتاح الثقافي وتوحد الهوية، وكان عنوان المطلب الثالث الوحدة الإسلامية؛ تناولت فيه كيفية تحقيق قضية الوحدة الإسلامية التي تكون من ثمار هذه الزيارة،

وكان المطلب الأخير بعنوان قضاء حوائج الناس ناقشت فيه بمسألة مهمة تتعلق في الزيارة الأربعينية وهي تلبية الحاجات، به تكون الزيارة الأربعينية المباركة تطبيقاً ميدانياً لمفهوم التعايش السلمي، والتجاذب الإنساني، فالملايين تتفانى بل وتتفنن في خدمة بعضها بعضا.. وبهذا أكون قد تناولت أهم المعاني التي تتصل بالبعد الإنساني ثم جاءت الخاتمة لتذكر نتائج البحث وبعض التوصيات. ثم قائمة المصادر والمراجع.

المطلب الأول: الإسلام والتربية الإنسانية:

لقد شرّع الإسلام منهجاً متكاملاً لتربية الفرد المسلم بوصفه نواةٌ للمجتمع ولبنةٌ في بنائه، يشتغل هذا المنهج مع أول نبض في عروق الإنسان ليرسم له المسار القويم طوال حياته ولا يزهد في صحبته حتى يخترم الموت أيامه. فلو ((تتبعنا آيات القرآن الكريم، وأحاديث السنة النبوية، لوجدنا البعد الإنساني يأخذ أهمية ومكانة بعد العقيدة مباشرة في كثير من الآيات والأحاديث طيلة الفترة التاريخية للتشريع الإسلامي)).[٦] وفي معان اجتماعية أخر، وردت أحاديث نبوية شريفة، كقوله تعالى: ((وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً)) [٧]،فالإنسان يمتلك الكرامة بسبب إنسانيته فقط، وبما أن الإنسانية سبب الكرامة فان كل خاصية جانبية غير دخيلة في إنسانية الإنسان لا تلعب دورا تعينيّاً على مستوى الكرامة ولا تؤدي إلى إزالتها ومن جملة هذه الخصائص: العرق والجنس، ولون البشرة والثروة ونوع اللغة والثقافة والقبح أو الجمال ونقص الأعضاء ...

وغيرها من النعوت التي لا تُعدُّ شيئاً مذكوراً في مقابل إيمان الفرد وتقواه. ومن ذلك قوله(صلى الله عليه وآله وسلم):(لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه) [٨].

لقد جاء الإسلام ليقضي على الطبقية فهو لم يفرق بين الناس باعتبار ألوانهم وأحسابهم فلم يفرق بين الحر والعبد على حساب التقوى بل (لا فرق بين ابيض وأسودٍ إلا بالتقوى) [٩] وكذلك لم يفرق بين الناس باعتبار أنسابهم بل((خلق الله الجنة لمن أطاع وأحسن ولو كان عبداً حبشيا، وخلق الله النار لمن عصاه ولو كان سيداً قرشيا)) [١٠] ولا على حساب جنسياتهم ولغاتهم بل ((إن الناس من آدم إلى يومنا هذا مثل أسنان المشط لا فضل للعربي على العجمي ولا للأحمر على الاسود إلا بالتقوى)) [١١]، وكذلك يقول رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ في الحديث نفسه في حق سلمان الفارسي : ((سلمان منّا أهل البيت))

إنّ الاختلاف في الأنساب والتباين في الأحساب، والتقابل في الرؤى والأفكار، ليس مدعاة للتنابذ والنزاعات والحروب والصراعات المفتوحة، وإنما هو مدعاة للتفاعل الايجابي والتعاون البناء، وذلك أنّ هذا الاختلاف ليس اختلاف أفضلية قومية أو عرقية أو قبلية أو غير ذلك، فلا فضل لعرق على آخر أو لنحلة على أخرى أو للون على لون آخر، وإنما هم جميعا سواء، ويبقى معيار التفاضل كسبيا، قال تعالى:﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾[١٢]، فالتفاضل بين البشر لا يكون إلا في الأمور الكسبية، فالاختلاف ليس سببا في الجفاء، والتباعد والتباين في وجهات النظر لا يلغي الجوامع المشتركة بين الإنسان، وتعدد الاجتهادات ليس مدعاة للنبذ والنفي، وإنما كل هذا يؤسس للانخراط في مشروع التعاون والفهم المتبادل حتى نشترك جميعا في بناء حياتنا على أسس العدالة والتعاون على البر والتقوى[١٣].

لقد تفرّد الموضوع الإنساني من بين موضوعاتٍ كثيرةٍ تتعلق بالزيارة الأربعينية بوصفه شريكاً فاعلاً في مساحات متباينة من مجموع مساحات تلك الموضوعات. فهو القاعدة التي انطلق منها الإسلام، لفحص الجوانب المتعددة التي تنظم الحياة وتعالجها، وهو بعدٌ يمثل المبدأ الجوهري المؤسس للرسالة السماوية والمرجع الرئيس لتدعيم قضيةٍ أو دحضِ أخرى، لأن به تمام الرسالة. وقد امتدت فاعلية الموضوع الإنساني لموضوعات أُخرى ليشكل بذلك فضاءً خصباً للتمفصل معها.

إن من نتائج الزيارة الأربعينية هو تحقيق التربية الإنسانية من خلال إحياء أصولها. وقواعدها المعيارية أو ضوابطها العامة المفيدة على مستوى العمل. فالمبادئ الإنسانية تتجسد وتتأصل من خلال العمل وتكراره وهذا ما حققته الزيارة الأربعينية من خلال ترجمة الأقوال إلى أفعال وتكرار هذه الأفعال في كل عام. فكل ما يعتقد به الفرد من اعتقادات وكل ما تمتلكه نفسه من صفات يترجم إلى أعمال تطبيقية في وقت الزيارة، وبذلك يتحقق سمو النفس والبدن، وإيجاد تغيرات على مستوى السلوك والحركات والسكنات من شانها ان تؤدي إلى تقوية وتثبيت إيمان أبناء المجتمع وترسيخ عقائده.

إن العلاقات المقدسة التي تتمثل بفطرة الإنسان وما يوجد في داخله من معرفة وإحساس عميق يتعلق بالمبدأ القدسي الذي يمكن أن يتحقق من خلال العلاقات القدسية التي تنشأ بين الزائرين والتي تتوحد من اجل إحياء مبادئ الدين وتعاليم شريعة سيد المرسلين محمدٍ الصادق الأمين، ومن الطبيعي أن هذا الانسجام وهذا التوحد بين مختلف الأبعاد الوجودية للإنسان يتضمن الإتحاد بين النظري والعملي للمبادئ السامية، وهو ما يسعى له المفهوم الإسلامي،

الذي يهدف من وراءه إلى الوصول إلى الحقائق. وبذلك يتحقق للإنسان القدرة على تنظيم فكره بما يتناسب مع المعطيات المتوفرة بين يديه[١٤]

إن الزيارة الأربعينية من شأنها أن تحقق مبدأ الإرادة والاختيار، وهذا المبدأ يُشعر الإنسان بالمسؤولية تجاه العمل الذي يختاره، باعتبار أن المسؤولية قاعدة اعتبارية، تحكي عن ضرورة شعور الفرد فما يتعلق بالمقاصد التي يريدها والتي على أساسها يقوم ببعض الأعمال الخاصة.

إن قبول هذا المبدأ يمنع أن يكون للإكراه دورٌ في تحديد مصير الإنسان، ومن هنا يجب تنظيم نشاطه في ما يتعلق بالمقاصد التي يريدها خاصة، ومن ثم اعتماده الوسائل الصحيحة والفعال المناسبة التي توصَّل إليها[١٥].

ومن الأصول المهمة في مبدأ التربية الإنسانية هو الشعور بالتوحد الجماعي أو (الهوية الجماعية)، فالفرد ليس له وجود جزئي ومستقل بالكامل عن العلاقات الاجتماعية. وفي المقابل فهو ليس ذائباً في المجتمع، بل بإمكانه أن يكون موجودا مستقلاً في إطار علاقاته الاجتماعية وبناءً على ذلك يكتسب الفرد هويته، فتنصهر الأنا في هتافاتٍ موحدة وشعاراتٍ محددة ومطلبٍ واحد هو الوصول إلى نتيجةٍ واحدة معروفة، وغاية محددةٍ موصوفة. وهي زيارة سيد الشهداء وتجديد العهد معه، والاقتداء بأهدافه السماوية السامية في تحقيق مفاهيم العدل والحرية، ومحاربة الظلم والفساد.

إن الزيارة الأربعينية تحقق هذا التعاطي الاجتماعي، بل يكون هذا التعاطي مؤثراً، بوصفه قاعدة اعتبارية من خلاله يكون تنظيم هذه الزيارة، إذ يمكن للشخص من خلاله الحصول على هوية جماعية تسمى (هوية الزائر) دون النظر إلى شخصه وأوصافه، وهذه الهوية من شأنها الحفاظ على فردية الفرد والارتقاء بها إلى مستوى جمعي، وبها يتم إيجاد تعامل حقيقي بين الأشخاص، ويتم حصول التفاعل والتعاطي المؤثر، فضلا عن أن التعاطي الاجتماعي يهيئ للأشخاص اختيار أو رفض العادات الاجتماعية، وهذا يسهم في طرد أشكال الضعف والوهن والنقص في تلك العادات والسنن. مع حصول فائدة أخرى تتمثل في طرد الأنانية والبغضاء بأشكالها كافة. ولاسيما المعرفية والعاطفية فيتمكن الفرد من الدخول إلى عالم الآخرين والاستفادة منهم[١٦]. والخروج من دائرة التنظيمات المصغرة والبرامج المخططة إلى إطار عام وشامل يمثل رسالة الإسلام في كلِ أبعادها.

المطلب الثاني: الانفتاح الثقافي وتوحد الهوية:

بدءاً لابد من ذكر مسالة مهمة جدا وهي إن الثقافة المنحرفة عندما تغزو أي بلد مهما كانت ثقافة هذا البلد أو مستوى الوعي الذي يمتلكه، فإنها تصيب أبناءه وتنتشر شيئا فشيئا بين صفوفهم وتعمل بشيء كبير من التخريب والسحر بهدف تخريب عقول الشباب الذين توجد فيهم الأرضية الخصبة لهذه الشعارات البراقة فتتغير سلوكياتهم وتصرفاتهم، بالتالي يمكن السيطرة الكاملة عليهم والتلاعب في عقولهم وأفكارهم وجرهم إلى سياسات وبرامج وايدولوجيات، من شأنها تدمير بلدانهم. وهذا هو الخطر المحدق الذي تخشاه جميع الدول والمجتمعات الإسلامية، ولا شك أن مثل هذه الثقافات من أخطر أنواع الانحراف، ولها أشكالها المتعددة وأخطارها المهددة لأمن المجتمع واستقراره ولاسيما تلك التي تتخذ من الدين ستاراً لنشر هذا الفكر وترويجه مصطدماً بالأنساق الدينية وكل عناصر الضبط الاجتماعي بداية من الأسرة التي يوليها الإسلام الاهتمام، وينظر إليها على أنها الخلية الأساسية في بناء المجتمع، وانتهاءً بالممارسات والسلوكيات التي لا تمت إلى الدين بصلة، التي أُدخلت في الشعائر الدينية. والتي

انتشرت في المائة والخمسين سنة الأخيرة خاصة، وأصبحت توظف لأغراض سياسية، كل ذلك يؤثر بشكل مباشر على الأمن الوطني والاستقرار الاقتصادي في أي دولة، إذ يعمد أصحاب ذلك الفكر إلى ارتكاب جرائم متعددة لفرض فكرهم على المجتمع من خلال استغلال أصحاب العقول المضطربة، والنفوس الضعيفة، والأقليات والفرق.

ولمواجهة هذه التيارات لابد من الالتزام بالمبادئ الإسلامية الحقيقية وتعاليم الشريعة السمحاء والرسالة النبوية الشريفة السامية والتوجيهات والأفكار السديدة التي أكدها أهل البيت (عليهم السلام)، وتفعيل الشعائر التي تربط الفرد بدينه ولاسيما الشعائر الحسينية ومنها زيارة الأربعين لما لها من أهمية في غرس العقيدة الإسلامية في نفوس الأفراد، كونها تسهم في تربيتهم وتغرس القيم الأصيلةَ في نفوسهم فتمتلئ قلوبهم بحب الآخرين وتتعلم نفوسهم الإيثار، حتى تتهيأ لاستقبال أفكارهم والتمعن بها والإفادة منها. لذلك لابد من الاهتمام بها وتعهدها بالرعاية ، وتنقيتها من الشوائب التي قد تخل بها .

إن القرآن الكريم يدعو الإنسان إلى الانفتاح والتسامح فلا يجعل نفسه أمام اتجاه واحد، ولا ينغلق على موروثات آبائه وأسلافه من دون دراسة وتمحيص، وقد أشار إلى ذلك نبي الإسلام محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) عندما قال: ((كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع)) [١٧] ، وهذا يتعلق بالعادات السلبية التي كان الحديث يتمحور حولها اذ اقر الاسلام الكثير من الامور والخصال العربية الحميدة التي كانت سائدة قبل الاسلام.

ولا يرفض الاسلام الانفتاح على أية فكرة ومحاكمتها في ضوء العقل وبما يتفق مع الشرع، لقبولها إن كانت أصحّ وأفضل، ورفضها إن كانت ضارة بالمجتمع، فإذا انغلق الإنسان على رأيه وأعرض عن الانفتاح على الآراء الأخرى فإنه سيعزل نفسه عن تطورات الفكر ونتائجه، ويحرم نفسه من إدراك حقائق ومعارف مفيدة، وقد يكون رأيه الذي انطوى عليه خاطئا فلا يكتشف بطلانه في ظلّ حالة الانكفاء والانغلاق.

وبهذا ذمّ القرآن الكريم منهجية الانغلاق الفكري من خلال إدانته لرفض المخالفين للأنبياء والاستماع إليهم والإصغاء لما يطرحه الأنبياء لموقفهم المسبق من رسالاتهم. فهؤلاء قوم نوح (عليه السلام) كانوا يرفضون مجرد السماع إلى دعوته فإذا جاء لمخاطبة أحد منهم أمسك على أذنه بأصابعه حتى شكاهم نوح (عليه السلام) إلى ربه كما في قوله تعالى: ((وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا))[١٨].

وكذلك كفار قريش كانوا يظهرون أمام رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) عدم مبالاتهم بسماع دعوته ورفضهم النظر في شأنها كما جاء في قوله تعالى: ((فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ)وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ))[١٩].

فمادام الإنسان يمتلك عقلا نيرا يميّز به الصواب من الخطأ فلا خوف من الانفتاح الفكري على مختلف الآراء والأفكار، وبعد الاستماع والاطلاع على مختلف الآراء تأتي مهمة النقد والتقويم لاختيار الرأي الأصوب والفكرة الأصحّ.

إنّ الخطاب الإسلامي هو الخطاب الذي يجب أن يوسع آفاقه ليشمل خطاب الإنسان للإنسان، فإسلامك عيش الإنسانية فيه؛ لأنّ هذه الإنسانية هي صورة داخلنا وصورة عقلنا المفكر وقلبنا النابض في التراث وطاقتنا

المتفجرة في الواقع. وبهذا الصدد فإنّ الزيارة الأربعينية تعزز التقارب بين الثقافات، وتحقق التلاقح الحضاري والتقارب الفكري بين أبناء الأديان المخلفة، والقوميات المتنوعة، وتغرس التفاهم في الثقافة الإنسانية، وتوجد الألفة والمحبة بين بني البشر وتبني الصداقات القائمة على السلم والأمن، الذي من شأنه أن يجلب الخير والسلام للمجتمعات فتنشأ العلاقات فيما بينها، فتصل إلى التصاهر والاختلاط فيما بينها على مختلف عينات الأفراد، فيتحقق اللقاء وتبادل الزيارات، وتتعدد الحوارات، بفضل ما يكون من برنامج اللقاء السنوي بين الناس اللذين يجمعهم طريق واحد هو طريق الحسين (عليه السلام)، وتكمن أهمية الزيارة الأربعينية في فرض النظام والاستقرار أيام الزيارة، فالناس يعرف بعضهم هدف الآخر. فيسرع إلى تسهيل مهمته، وانسياب حركته، ويعمل على معالجة جميع العوائق التي من شأنها إعاقة قصده. وتحقيق هدفه فالجميع يتعاون من أجل ضمان الحقوق المدنية والسياسية للمواطنين، والتمتع بممارسة الديمقراطية وحرية التعبير، وتحقيق المساواة أمام القانون بين الجميع على اختلاف الألوان والأجناس .

المطلب الثالث: الوحدة الإسلامية:

إنَّ الإسلام يدعو المسلمين إلى التوحد والمرابطة والتشكل وتوحيد الكلمة، وينهى عن الرهبنة والعزلة وعن التشتت والفرقة. إن الزيارة الأربعينية من شأنها أن تحقق مبدأ الإرادة والاختيار، وهذا المبدأ يُشعر الإنسان بالمسؤولية تجاه العمل الذي يختاره، باعتبار أن المسؤولية قاعدة اعتبارية، تحكي عن ضرورة شعور الفرد فما يتعلق بالمقاصد التي يريدها والتي على أساسها يقوم ببعض الأعمال الخاصة، وقد هال أعداء الإسلام ذلك التماسك الصلب والترابط المتين ما بين المسلمين، على اختلاف أعراقهم ولغاتهم وبلدانهم، وعرفوا أنَّ تماسكهم وترابطهم قائمان على أساس العقيدة الواحدة، والأخوة الإيمانية، وتأملوا طويلاً في ذلك الطود البشري الراسخ المنيع، المتراص من اتحاد الشعوب الإسلامية، وانصهارها في بوتقة الإيمان بالعقيدة الإسلامية، والتآخي في الله تعالى، وعجزوا عن مقاومته خلال قرون، حتى أوحت لهم شياطينهم أنْ يعمدوا إلى تفتيته بوسائل التجزئة المختلفة، ضمن خطة مرسومة، وبدءوا يضربون في ذلك الطود الهائل أسفين الشقاق، ويسقونها جرثومة الفساد والضغينة والعصبية والخلافات المتنوعة، ويعطون للزمن فرصة تمكين الشقاق والخلاف وتعميقه، حتى يفعل تطاول العهد بهذه الأمة الواحدة من التمزيق والتشقيق والتفتيت ما لم تفعله الحروب المسلحة. فعمدوا إلى سياسات متنوعة تمثلت في قطع الطرق ومطاردة الزائرين وإيذائهم بمختلف الطرق، وزرع الطائفية المقيتة التي استهدفت أرواح الناس، وتفتيت الوحدة المجتمعية.

أما وسائل التجزئة فكثيرة ومختلفة، فقد عمدوا إلى التجزئة والتفتيت، بعناصر الاختلاف السياسي، ثمَّ بعناصر الاختلاف الطائفي، وذلك بإلقاء أسباب الخلاف في العقائد، ثمَّ بعناصر الاختلاف المذهبي، وذلك بتشجيع التعصب المذهبي وبتغذيته ضد المذاهب المخالفة. وأصبحت لهذه العناصر أثر في جميع الشعوب الإسلامية على اختلاف قومياتهم. ثمَّ عمدوا إلى التفرقة بعناصر الاختلاف العرقي والقومي واللغوي، مع تمكين التفرقة بعناصر الاختلاف الأخرى، حتى تصطرع فيما بينها عناصر الشقاق المختلفة، لتزيد منه وتمكن له. وبعد ذلك أوغلوا في خلق عناصر الاختلاف الإقليمي، بين أهل الأقاليم التي تجمعها عقيدة واحدة، وقومية واحدة، ولغة واحدة. ثمَّ انتقلوا إلى التجزئة بعناصر الاختلاف القطري، والاختلاف بين بلد وبلدٍ داخل إقليم واحد أو قطر واحد. وهكذا تتسلسل هذه العناصر

حتى تصل إلى عناصر الاختلاف الأسري، ثمَّ إلى عناصر الاختلاف الشخصي داخل الأسرة الواحدة، كل ذلك بوازع الأنانية التي تتسع حيناً وتضيق حيناً آخر.

لقد كانت الزيارة الأربعينية العلاج الشافي لجميع العلل والأمراض التي تصيب المجتمع، والمبيد الفتاك الذي يستطيع أن يقضي عل كل تلك الجراثيم الخبيثة، التي تعمل على تهديم القيم المنشودة. فهذه الشعيرة تعمل على إفشال المخططات. وإسكات جميع الأصوات. من خلال مسيرتها الخالدة والتي تسلك سبيلاً واحداً، واضحاً لا اعوجاج فيه يعرفه الصغير والكبير، والغني والفقير، يوصل إلى سفينة النجاة، التي من ركبها كان من الآمنين، ومن تخلف عنها كان من الهالكين، ثم أن الزيارة الأربعينية أنموذجاً واقعياً يجسد مفهوم الوحدة بعفوية عالية وفطرة راقية ليس بين أبناء المذهب الواحد فحسب، بل بين أبناء المذاهب المختلفة، وليس على مستوى البلد الذي يحتضن الزيارة، بل على مستوى جميع البلدان الإسلامية، فالجنسيات والأديان والقوميات منصهرة ومندمجة مع بعضها في ظل العطاء الحسيني الثر.

المطلب الرابع: قضاء حوائج الناس:

شدد الدين الإسلامي على مد يد العون للفرد الاجتماعي الذي تصيبه فاقة أو تعتريه شدّة، فقد جاءت نصوص دينية كثيرة تؤكد هذا المعنى؛ منها قوله تعالى: ((وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا)) [٢٠]، ومنها أيضا ما ورد عن الرسول المصطفى(ص) قوله: ((مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم، مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو، تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى)) [٢١]، وقال(ص): ((من خرج في حاجة مؤمن فالله ضامن له الجنة)) [٢٢]، وجاء عن الإمام جعفر الصادق(ع): ((ما قضى مسلم لمسلم حاجة إلا ناداه الله: عليَّ ثوابك ولا أرض لك بدون الجنة)) [٢٣].

ولعل الزيارة الأربعينية واحدة من أبرز قنوات توصيل المعاني الإسلامية الاجتماعية وغيرها وهو ما دأب عليه أهل البيت في سيرهم، ومنهم الإمام الحسين(عليه السلام) الذي استطاع الولوج إلى كنه الذات البشرية وطبيعتها وسعى سعيا جادا لنشر الفضائل الاجتماعية، إذ كان داعيا حثيثا لضرورة التغير الاجتماعي نحو الأفضل[٢٤]، فهو ((امتياز اجتماعي كبير)) [٢٥]. إذ إن أكثر الاتجاهات شيوعا في موضوع الزيارة الأربعينية هو دراسة هذا الحدث الكبير وتخليد الأعمال التي يفعلها الناس فيما بينهم والاحتفاظ بها كوثائق اجتماعية، على افتراض أنها صور للحقيقة الاجتماعية الواقعية، التي يمكن أن تكشف عن الاهتمام بحاجات الناس وإغاثة الملهوفين منهم، والحرص على الاستجابة لهم، وتحقيق احتياجاتهم.

وقد تجلت تلك المعاني من خلال تقديم الطعام والسكن والعلاج وتوفير كل الوسائل اللازمة التي يحتاجها الزائر القادم من مناطق بعيدة. وهذا مما دعا إليه الإمام الحسين (عليه السلام) نفسه في احدى خطبه إذ يقول: ((يا أيها الناس نافسوا في المكارم وسارعوا في المغانم ولا تحتسبوا بمعروف لم تعجلوه، واكسبوا الحمد بالنجح ولا تكتسبوا بالمطل ذما، فمهما يكن لأحد عند أحد صنيعة له رأي أنه لا يقوم بشكرها فالله له بمكافأته فإنه أجزل عطاء وأعظم أجرا. واعلموا أن حوائج الناس إليكم من نعم الله عليكم فلا تملوا النعم فتحور نقما)) [٢٦]. وهذا الكلام يفصح عن صورة للحثّ الشديد على عمل الخير والاجتهاد في طلبه وعلى وفق سياق اجتماعي ديني، حتى لكأنَّ المتلقي يتخيل

حـــــــال المسلمين وهم في زحام وتدافع تجاه عمل البِّر والفضيلة. وهذا ما أكده رسول الله (صلى الله عليه واله وسلم) حينما قال:((اصطنع الخير إلى مَن هو أهله وإلى مَن هو مِن غير أهله، فإن لم تصب مَن هو أهله فأنتَ أهله)) [٢٧].

ومن ابرز أعمال الخير في الزيارة الأربعينية هي تقديم الخدمات للزائرين ويأتي في مقدمتها الطعام والسكن. ومما هو ثابت في الشريعة أن إطعام الطعام. من الأمور التي يحبها الله ورسوله وفيها الأجر الجزيل، هما من المستحبات المؤكدة في الشريعة المقدسة، سواء كان ذلك من أجل الحسين(عليه السلام) أو أي شخص آخر، فإن الله سبحانه وتعالى يحب إطعام الطعام والتصدق على المحتاجين، حتى قيل إن عبد الله بن جذعان والذي مات كافراً أخف أهل النار عذابا، لأنه كما قال الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) يحب إطعام الطعام وإفشاء السلام ، ولذا كما في بعض الروايات الصحيحة أن الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) كان يشتري الشاة ثم يذبحها ويقطع أعضاءها ويبعثها صدقة لخديجة عليها السلام[٢٨].

وعن عائشة قالت: أن رجلا أتى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فقال يا رسول الله إن أمي افتلتت نفسها ولم توص أفلها أجر إن تصدقت عنها؟ فقال صلى الله عليه وآله: نعم [٢٩].

فإطعام الطعام من أجل الحسين(عليه السلام)، والتصدق على المحتاجين بدلا عن الحسين(عليه السلام) وإسعاف المصابين ونقل الزائرين، وإرشادهم وقضاء حوائجهم، مما لا خلاف أصلا في رجحانه واستحبابه، وحصول الأجر عليه.

وهكذا صارت الزيارة الأربعينية طب المجتمع وأمله، فقد صارت طاقة ترفد المجتمع الإنساني بكل ما من شأنه تغيير الواقع المتردي، بمبادئ سامية ومواقف تحررية صلبة الإرادة.

وتأسيسا على ما تقدم بات واضحا أن الموضوع الإنساني صوَّر الجانب الأشمل في الزيارة الأربعينية؛ إذ تميز بتنوع معانيه وثراء مكنوناته، وغناه الفكري والديني، وعكس بجلاء موقف المؤمنين من الإمام الحسين في ثورته الخالدة، وموقفه الإسلامي النبيل، وتضحيته الكبيرة من اجل إعلاء كلمة التوحيد، التي رفعتها رسالة جده المصطفى محمد (صلى الله عليه وآله وسلم).

النتائج والتوصيات :

==========

أولا: النتائج:

توصلت الدراسة إلى نتائج يمكن إجمالها بحسب الآتي:

١ ـ إنَّ لزيارة الأربعين ثماراً كثيرة كلها تصب في تأصيل الشريعة الإسلامية والعودة بها إلى أصولها الحقيقية في مختلف الأبعاد والميادين ولاسيما البعد الإنساني الذي يتجسد فيها تجسدا عاليا وفي مختلف موارده ومعانيه: فهي تحقق التعاطي الاجتماعي، بل يكون هذا التعاطي مؤثراً، بوصفه قاعدة اعتبارية من خلاله يكون تنظيم مجموعة من القيم التي ينشدها الإسلام فتحقق التربية الإنسانية من خلال إحياء أصولها. وقواعدها المعيارية وضوابطها العامة المفيدة على مستوى العمل. وتتأصل من خلال العمل وتكراره.

٢ ـ إن الزيارة الأربعينية من شأنها أن تحقق مبدأ الإرادة والاختيار، وهذا المبدأ يُشعر الإنسان بالمسؤولية تجاه العمل الذي يختاره، باعتبار أن المسؤولية قاعدة اعتبارية، تحكي عن ضرورة شعور الفرد .

٣ـ إنَّ الزيارة الأربعينية تعزز التقارب بين الثقافات، وتحقق التلاقح الحضاري والتقارب الفكري بين أبناء الأديان المختلفة، والقوميات المتنوعة، وتغرس التفاهم في الثقافة الإنسانية وتوجد الألفة والمحبة بين بني البشر وتبني الصداقات القائمة على السلم والأمن، الذي من شأنه أن يجلب الخير والسلام للمجتمعات فضلاً عن أنها تحقق التوحد والمرابطة والتشكل وتوحيد الكلمة.

٤ـ إن زيارة الأربعين صارت مثالا حيا للوحدة الإسلامية المنشودة، فهي أنموذجاً واقعياً يجسد مفهوم الوحدة بعفوية عالية وفطرة راقية ليس بين أبناء المذهب الواحد فحسب بل بين أبناء المذاهب المختلفة، وليس على مستوى البلد الذي يحتضن الزيارة بل على مستوى جميع البلدان الإسلامية، فالجنسيات والأديان والقوميات منصهرة ومندمجة مع بعضها في ظل العطاء الحسيني الثر.

٥ـ بينت الدراسة أن زيارة الأربعين صارت طب المجتمع وأمله، فهي طاقة ترفد المجتمع الإنساني بكل ما من شأنه تغيير الواقع المتردي، بمبادئ سامية نبيلة. من خلال مبدأ أساس وهو قضاء حوائج الناس ومد يد العون للفرد الاجتماعي.

ثانياً: التوصيات:

- أدعو إلى دراسة موضوعية ميدانية علمية واسعة، تعالج المعوقات التي من شأنها أن تصعب على الزائرين أداء مراسيم الزيارة للتعرف عليها أكثر ومعالجتها.
- بالمقابل أدعو إلى دراسة جغرافية لمدينة كربلاء ترسم خريطة تفتح فيها المحافظة على جميع الاتجاهات. وتتنوع فيها جميع خطوط النقل وتستخدم الجسور والأنفاق التي من شأنها إنهاء جميع التقاطعات في شوارع المدينة
- الإكثار من إقامة المؤتمرات والندوات لبيان أهمية هذه الشعيرة وعرض الأفكار التي من شأنها خدمة الزائرين وإعلاء أمر عترة سيد المرسلين.
- استخدام التكنولوجيا المتطورة وتوفير الأجهزة الحديثة التي من شأنها معالجة مسألة النفايات في المحافظة والاستفادة منها.
- إيجاد خطط أمنية مدروسة تسهل استمرار الحياة لأبناء مدينة كربلاء ولاسيما أطراف المحافظة القريبة ومعالجة الحالات والأزمات الطارئة كحالات الوفيات والولادات والمصابين بالفشل الكلوي والحالات المرضية الأخرى.
- تشكيل اللجان وتفعيلها من أجل العمل على ترتيب عمل المواكب داخل المحافظة وتحديد أماكنها بدقة وعدم تجاوزهم على الأمور التي من شأنها إظهار جمالية المحافظة كالأشجار والحدائق والمرافق الأخرى.
- ضرورة إلفات نظر الزائرين إلى أن زيارة الأربعين لم تعد شعيرة واسعة فقط بل هي مشروع حضاري وتجمع إنساني ضخم يعكس الوجه المشرق للدين الإسلامي الحنيف، فينبغي على كل زائر الانتباه لذلك والعمل بموجبه، ومراعاة ذلك بشدة وبعناية عظيمتين.

والله من وراء القصد والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين وآله الطيبين الطاهرين.

الهوامش:

---

[١] جامع أحاديث الشيعة:١٢/٥٥٦.

[٢] بحار الأنوار الجامعة لأخبار الأئمة الأطهار:٤٥/٢٠٦.

[٣] أمالي الصدوق. علي بن الحسن بن بابويه القمي: ٢/١١١(المجلس:٢٧).

[٤] في زيارة الناحية المقدسة المروية عن الإمام الحجة بن الحسن ـ عليه السلام ـ.

[٥] المزار: الشيخ المفيد: ٥٣ ـ٥٤. بحار الأنوار الجامعة لأخبار الأئمة الأطهار. الشيخ محمد باقر المجلسي:٨٢/٧٥ ـ٧٦.

[٦] دراسة موضوعية فنية في أدب الرقائق(رسالة ماجستير)، أحمد عبد الرزاق:٦٤.

[٧] الإسراء:٧٠.

[٨] صحيح البخاري:١/٢٨(كتاب الإيمان).

[٩] بحار الأنوار:٧٥/٢٥١.

[١٠] مناقب آل أبي طالب ابن شهر أشوب المازندراني. محمد بن علي:٤/١٥١.

[١١] بحار الأنوار:٢٢/٣٤٨.

[١٢] سورة الحجرات:١٣.

[١٣] في معنى التسامح. محمد محفوظ :١٩٥-١٩٦.

[١٤] ينظر: فلسفة التربية والتعليم الإسلامية.د خسرو باقري: ٢٣٦.

[١٥] ينظر:المصدر نفسه:٢٣٨.

[١٦] ينظر:المصدر نفسه:٢٣٩.

[١٧] السيرة النبوية. ابن هشام، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد:٣/٢٦٥.

[١٨] سورة نوح:٧.

[١٩] سورة فصلت:٤-٥.

[٢٠] سورة الإنسان:٢٨.

[٢١] صحيح مسلم:١٠٠١(باب تراحم المؤمنين).

[٢٢] مختصر جواهر الكلام في الحكم والأحكام- معجم مفهرس للحكم النبوية، القاضي ناصح الدين الآمدي:٨١.

[٢٣] ثواب الأعمال وعقاب الأعمال:١٨٨.

[٢٤] الإمام الحسين عملاق الفكر الثوري:٣٩٩.

[٢٥] الملحمة الحسينية:١/١٣٢.

[٢٦] كشف الغمة:٢/٢٢١-٢٢٢، وينظر:المجالس السنية:١/٣٦، ولواعج الأشجان:١٧.

[٢٧] عيون أخبار الرضا(ع):٢/٣٨.

[٢٨] صحيح البخاري ومسلم في فضائل خديجة .

[٢٩] صحيح مسلم : أبواب الزكاة ، باب وصول ثواب الصدقة عن الميت

المصادر والمراجع:

- الإمام الحسين عملاق الفكر الثوري- دراسة في المنهج والمسار، د. محمد حسين علي الصغير، مؤسسة المعارف للمطبوعات، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠٠٢م.
- أمالي الصدوق، أبو جعفر محمد بن علي بن الحسن بن بابويه القمي (ت٣٨١هـ)، تقديم: محمد مهدي حسن الموسوي الخرسان، المطبعة الحيدرية، النجف الأشرف، ١٩٧٠م.
- بحار الأنوار الجامعة لأخبار الأئمة الأطهار. الشيخ محمد باقر المجلسي (ت١١١١هـ)، المكتبة الإسلامية، طهران، د.ت.
- ثواب الأعمال وعقاب الأعمال، الصدوق(ت ٣٨١هـ)، قدم له: محمد مهدي الخرسان، أمير، قم، ط٢، ١٣٦٨هـ.
- جامع أحاديث الشيعة. اسماعيل المعزي الملايري، الف تحت اشراف السيد الحاج آقا حسين الطباطبائي البروجردي، مؤسسة الواصف، ١٤٢٢هـ.
- دراسة موضوعية فنية في أدب الرقائق(رسالة ماجستير)، أحمد عبد الرزاق خليل، كلية الآداب، جامعة البصرة، ٢٠٠٢م.
- صحيح البخاري، أبو عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري(ت٢٥٦هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠٠١.
- صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري(ت٢٦١هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط٢، ٢٠٠٢م.
- السيرة النبوية. ابن هشام، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، دار الكتب العلمية ـ القاهره نشر مكتبة محمد علي وأولاده،١٣٧٣هـ :
- عيون أخبار الرضا(ع)، أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه الشيخ الصدوق(ت ٣٨١هـ)، أمير، قم، ط١، ١٣٧٨هـ.
- فلسفة التربية والتعليم الإسلامية.د خسرو باقري، دار البلاغة، الطبعة الأولى،٢٠١٤م.
- في معنى التسامح.محمد محفوظ.
- كشف الغمة في معرفة الأئمة، الإربلي(ت ٦٩٣هـ)، دار الأضواء، بيروت، لبنان، ٢٠٠٥م.
- لواعج الأشجان، محسن الأمين العاملي، تحقيق:حسن الأمين، دار الأمير، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٩٦م.
- الملحمة الحسينية، مرتضى المطهري، فيضية، ط١، ١٤٢٥هـ.
- المجالس السنية في مناقب ومصائب العترة النبوية، محسن الأمين، شريعت، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٢٥هـ.

- مختصر جواهر الكلام في الحكم والأحكام- معجم مفهرس للحكم النبوية، القاضي ناصح الدين الآمدي، دار العلوم، بيروت، ط١، ١٩٩٤م.
- المزار. الشيخ المفيد، منشورات محبين، قم، إيران، ط١، ٢٠٠٥م.
- مناقب آل أبي طالب، أبو جعفر محمد بن علي بن شهر أشوب السروي المازندراني(ت٥٨٨هـ)، تحقيق وفهرسة: د.يوسف البقاعي، دار الأضواء، بيروت، لبنان، ط٢، ١٩٩١م.